

في أفق السياسة العالمية

بين هولندا وأندونيسيا

كان الناس إلى وقت قريب إذا ذكروا الاستعمار الأوربي اتجهت أفكارهم نحو الهند وما وسعته أرضها من كنوز ونفائس وأسواق تغص بمئات الملايين من البشر، وفيها من المنتجات المعدنية والزراعية والصناعية ما جذب أنظار الناس وخلق ألبابهم منذ القدم . فلا غرو أن قامت حركة الاستكشاف في مستهل القرون الحديثة ووجهتها جميعاً إلى الهند، وأن يكون كولمب ومن تبعه من الكاشفين الأوربيين على اختلاف جنسياتهم قد عبروا المحيطات وأبحروا فيها غرباً وشرقاً باحثين عن أمثل الطرق وأقصرها للوصول إلى الهند . وقد أدى بهم الحنين إلى تلك الأرض السحرية وشدة تلهفهم على التماس سواحلها أن أطلقوا اسم الهند على كثير من الجزر والأراضي التي نزلوا بها دون علم بكنهها . وإنك لترى الآن اسم الهند على الخريطة يطالعك في جهات عدة منها ؛ ففي أمريكا جزر الهند الغربية ، وفي آسيا جزر الهند الشرقية ، وترى إلى جانب الهند البريطانية السابقة الهند الفرنسية والهند الهولندية ، وفيها جميعاً قد رسخت قدم الاستعمار الأوربي بدرجات متفاوتة منذ القرن السادس عشر إلى وقتنا الحاضر . وقد كان يجب أن يذكر اسم البرتغاليين إلى جانب الانجليز والهولنديين والفرنسيين الذين استعمروا في آسيا ؛ فهم أول من خاطر بالسياسة حول إفريقية في الأزمنة الحديثة، وكان فاسكو دا جاما أول من اخترق المحيط الهندي حول إفريقية إلى ساحل الهند الغربي في ذلك الوقت . وإلى جهود مستكشفيهم وحكامهم الآخرين في القرن السادس عشر يرجع تفوق البرتغال البحري في المحيط الهندي والبحر الأحمر وانتزاع السيادة في تلك الأرجاء من أمرائها الوطنيين ومعظمهم من المسلمين ؛ وذلك بعد أن عجز المالك والبنادقة متحدين عن صد تلك القوة البحرية الجارفة . وقد كان البابا إسكندر السادس حين اشتدت المناقشة بين الأسبان والبرتغاليين في إبان حركة الاستكشافات ، قد

قضى بأن يكون خط الطول الذى يمر غربى جزيرة أسورة هو الحد الفاصل بين نشاط الأمتين ؛ فما استكشف شرقيه كأن للبرتغال وما استكشف غربيه كان لأسبانيا ؛ ولذلك كانت جزر الهند الشرقية من نصيب البرتغال . غير أن أسبانيا ما لبثت أن ضمت البرتغال فى سنة ١٥٨٠ ، واستمر هذا الاتحاد إلى سنة ١٦٤٠ . وفى تلك الأثناء كان الهولنديون والانجليز ينافسون أسبانيا العدا ، فاستطاع الهولنديون أن يضعوا أيديهم على جزر الهند الشرقية فى أوائل القرن السابع عشر . ومن ثم عرفت هذه الجزر التى تتألف من جاوة وسومطرة ومادورا وكثير من الجزر الصغيرة الأخرى بالهند الهولندية أو النذرلندية Netherland Indies وهى التى تعرف الآن بأندونيسيا ، أو على الأصح هندونيسيا ، ولها شهرة عالمية فى إنتاج المطاط والتبغ والقصدير والسكر والبتروول . ويبلغ عدد سكانها أكثر من خمسين مليون نفس ، منهم نحو خمسة وأربعين مليوناً فى جاوة وهى أهم هذه الجزر وأعرقها مدنية . والكثرة العظمى من الأهالى مسلمون يعملون فى الزراعة ويتكلمون بلغة الملايو . وبها أقليات من الصينيين والأوربيين لا يزيد عددهم جميعاً على نصف مليون نفس .

ولما دخل الهولنديون البلاد ، وجدوا أنفسهم أمام شعب عريق ، يعترف بمدنيته الجاوية القديمة ، وينعم بوحدة فى الجنس واللغة والدين لا تتمرقها الأحقاد ولا تشوبها المنازعات بين الطبقات كما هى الحال فى الهند .

ولما كان الهولنديون فى مقدمة الشعوب الأوربية التى ثارت وكافحت طويلاً من أجل حريتها واستقلالها ، فانهم ساروا فى استعمارهم وفق سياسة أكثر استنارة من سياسة البرتغاليين والأسبان الذين أنشأوا محاكم التفتيش فى بلادهم ضد مخالفيهم فى الدين ، واتخذوا من الاستعمار أداة طيعة للتبشير ونشر المذهب الكاثوليكي فى مستعمراتهم بين الوثنيين والمسلمين على السواء .

وقد كانت شؤون هذه الجزر فى أول الأمر بأيدي شركة الهند الهولندية ، فاستغلت الشركة موارد البلاد وطغت فى حكمها أكثر من قرنين حتى تسلمتها الحكومة الهولندية فى منتصف القرن التاسع عشر ؛ فبدأت عهداً جديداً كان اتجاهها فيه أقرب إلى النظام البريطانى الذى كان يهدف إلى الحكم الذاتى منه إلى النظام الفرنسى الذى يعمل عادة لفرنسة أهل مستعمراتهم وإدماجهم فى الدولة الفرنسية . ولم يكن عجباً أن يتأثر الهولنديون بالنظم البريطانية

فقد حالف الهولنديون الانجليز في سلمهم وفي حروبهم ، وجمعت بينهم أواصر الجوار والمذهب الديني ، وألف بين قلوبهم ركوب البحار والتعرض للأخطار . وعلى ذلك وضع الهولنديون خططهم في استعمار أندونيسيا على أساس ثنائي يتيح للوطنيين أن يرفعوا من ستواهم عند القاعدة حتى يلتقوا بمضى الزمن مع الأوربيين عند قمة الهرم فكان الوطنيون يبدءون تعليمهم في مدارسهم الابتدائية بلغتهم الوطنية ، حتى إذا وصلوا إلى مرحلة التعليم الثانوى تلقوا



دراسة اللغة الهولندية إلى جانب دروسهم الأخرى . فاذا واصل النابهون منهم دراساتهم الجامعية في بتافيا عاصمة الهند الهولندية امتزجوا بزمنلائهم الأوربيين وحصلوا علومهم باللغة الهولندية ، وتساوت فرص التخصص أمامهم جميعاً سواء في أندونيسيا أو جامعات هولندا . وبمثل هذه الروح سار الهولنديون في إصلاحاتهم الأخرى ، فألفوا اللجان وأنشأوا المعاهد لمواصلة البحوث العلمية

المستفيضة في كل ما من شأنه ترقية منتجات البلاد وتحسين أحوالها ودرس حاجاتها في مختلف الوجوه .

ولاشك في أن الاندونيسيين قد جنوا من تلك الإصلاحات خيراً كثيراً حتى شاركوا الهولنديين على قدم المساواة في كثير من الأعمال والوظائف الحكومية . ولكن هذه الإصلاحات جميعها كانت هباء إلى جانب قصور الهولنديين في الناحية السياسية . والشعوب المغلوبة على أمرها لا تعنى عادة بالتقدم المادى أو الثقافى مثل اهتمامها بالتمتع بحرياتها وحقوقها الوطنية ؛ فهي تعتبر قمع هذه الحقوق مسبة وطنية ، كما أنها تعتبر تحقيقها فرضاً يتعين على الوطنيين الأحرار أن يكافحوا في سبيله مهما أغدق عليهم المستعمرون من مال وجاه . وعلى قدر اهتمام الوطنيين بهذه الناحية السياسية يكون عادة تلكؤ المستعمرين . وترددهم في إجابة الوطنيين إلى حقوقهم ؛ فهم رغم تظاهرهم باخلاص نياتهم في الإصلاح لا يبدون منساقون بغريزة الأثرة والدفاع عن النفس إلى قمع الحركات الوطنية أو القومية في البلاد التي يحكمونها ، وتأخير إعدادها للحكم الذاتي أو الاستقلال حتى يرغبوا على ذلك إرغاماً ، إما بالثورة من جانب الحكوميين وإما انصياعاً للظروف وقوة الأمر الواقع . وقد قضى الانجليز في حكم الهند وقضى الهولنديون في حكم أندونيسيا قروناً طويلة استطاع المستعمرون في أثناءها أن ينهضوا بشؤون المستعمرين من الناحيتين الاقتصادية والثقافية . ولكننا نشاهد الآن أنه حان الوقت لنزول المستعمرين عن سلطات الحكم للوطنيين طوعاً أو كرهاً . وجد الوطنيون سبيل الحكم أمامهم خاصة بالأشواك والعثرات ملفومة بالصعاب والشراك . وذلك لأن المستعمرين لم يكن يهمهم أن يأخذوا بيد الأهالى نحو الاضطلاع بالمسئوليات بقدر ما كان يهمهم زراعة القطن وصناعته في الهند أو استغلال المطاط والبترول في أندونيسيا .

وقد كانت هولنדה تعين على أندونيسيا حاكماً عاماً تضع في يده جميع السلطات ، وكان يساعده مجلس استشارى خاص لم يكن له شأن يذكر في الحكم . ولكن ما كادت تنتهى الحرب العالمية الأولى وتهب الحركات الوطنية في الشرق والغرب بتأثير مبدأ تقرير المصير الذى نادى به الرئيس ولسون قبيل انتهاء الحرب ، حتى نشبت الثورة في مصر وإرلنده وتركيا والهند ، واضطر الهولنديون إلى إشراك الوطنيين في الحكم فألفوا مجلساً شعبياً من ٦ عضواً كان نصفهم

من الوطنيين ينتخبون له بطريق الانتخاب غير المباشر. وقد قصروا اختصاص المجلس على بحث شؤون الضرائب والجمارك والهجرة داخل البلاد. على أن هذه البلغة من الحكم النيابي لم تشبع نهم الوطنيين للحرية والاستقلال؛ فأخذ القادة الوطنيون ينظمون صفوفهم ويوثقون صلاتهم بقيادة الحركات الوطنية في الهند وبورما والصين واليابان، وابتدأوا يترقبون الفرص لتحقيق أمنهم. وقد سنحت لهم الفرصة أخيراً عند ما قامت الحرب العالمية الثانية. فى ربيع عام ١٩٤٠ اجتاحت ألمانيا هولندا وغادرت ملكتها وحكومتها البلاد إلى إنجلترا. ثم دخلت اليابان الحرب فأعلنت هولندا عليها الحرب فى ديسمبر سنة ١٩٤١. ومنذ ذلك الوقت دخلت المسألة الأندونيسية بل المسألة الآسيوية فى طور جديد من تاريخها. فقد بدأ عهد تفوق اليابان فى شرق آسيا وجنوبها واستطاعت بعد انقضاها على الأسطول الأمريكى فى ميناء بيرل وعلى البارجتين الانجليزيتين الراسيتين فى خليج سيام أن تسيطر على مياه المحيطين الهندي والهادى، وأن تكتسح أمامها وهى فى دفعها الأولى الجارفة جميع المستعمرات الأوربية والأمريكية فى شرق آسيا وجنوبها، فاحتلت جزر الفلبين من الولايات المتحدة، وشبه جزيرة الملايو، وسنغافورة، ثم بورما من إنجلترا، وجزر الهند الشرقية من هولندا، والهند الصينية من فرنسا، وأصبحت اليابان تهدد الهند نفسها وأستراليا. وليت الأمر كان مقصوراً على ذلك التفوق الحربى الذى استمر أكثر من ثلاث سنوات. بل كان ذلك التفوق الحربى المؤقت حادثاً بالغ الأثر فى تاريخ الشعوب الآسيوية التى أذلها المستعمرون واستضعفوها قروناً طويلة. فها هى ذى اليابان الدولة الآسيوية التى انتصرت على روسيا فى أوائل هذا القرن قد حالفتها آلهة النصر أيضاً فى هذه الحرب، فانتصرت على سادة البحر من الانجليز والأمريكان، واستطاعت أن تستولى على سنغافورة تلك القاعدة البريطانية الحصينة الواقعة على خط الاستواء تحرس لبريطانيا طريقها الامبراطورى بين آسيا وأستراليا وبين المحيطين الهندي والهادى. لذلك كان انتصار اليابان بمثابة ناقوس عظيم جلجلت دقاته وسط هضاب آسيا وسهولها، فأيقظت الشعوب المغلوبة على أمرها الصامته على مضض، وملاّت قلوب القوم ثقة بأنفسهم، وأملا فى التخلص نهائياً من سلطان الجنس الابيض. ولم تكن الشعوب التى أخضعها اليابانيون وحرروها مؤقتاً من الاستعمار الأوربي لتبتهم كثيراً بأسلوب الحكم اليابانى واننسابه إلى

الطغيان النازي أو الفاشي . فالشعوب المستعمرة أو الحكومة لا تستسيع في كفاحها أن تبحث فلسفة الحكم وأنواعه، وإنما يهيمها أمر واحد تؤثره على كل شيء آخر، ذلك هو الخلاص من الحكم الأجنبي . وكان اليابانيون على علم بشعور الأهالي، فاستغلوه ضد الأوربيين وضد الجنس الأبيض عامة ، وجعلوا في أثناء احتلالهم لتلك البلاد يدرّبون أهلها على فنون الحرب ، فألفوا منهم الجيوش والعصابات وسلحوهم بمختلف الأسلحة . حتى إذا دنت ساعة النصر للحلفاء وأحس اليابانيون باقتراب أجل احتلالهم لتلك البلاد ورثوا الوطنيون سلاحهم ومؤنتهم وعتادهم . وقام الوطنيون من كل صوب في الهند وبورما وأندونيسيا والصين الهندي يتحدون ويتحفزون لقتال الحلفاء الذين قد تحدّثهم أنفسهم باستعادة سيّطرتهم على مستعمراتهم القديمة .

وكانت الحركة الوطنية في أندونيسيا قد لقيت قبل الحرب الأخيرة عنتاً من جانب الهولنديين ؛ إذ اضطهدوا زعيمها الدكتور أحمد سوكرنو وسجنوه أربع سنوات ثم أطلقوا سراحه سنة ١٩٣١ لينفوه إلى جزيرة سومطرة . ولكن حكومة هولندا بعد أن شردها الألمان من بلادها وانقطعت صلاتها بأملاكها في عرض المحيط عادت تحاول أن تجتذب إليها قلوب أهل مستعمراتها ، فأعلنت ملكة هولندا في سنة ١٩٤٢ من منفاها بالجزيرة اعترافاً هولندا بعد أن يتم تحريرها على سن دستور اتحادى يجمع بين هولندا وأملاكها في الشرق والغرب ، ويتمتع فيه الجميع بالحكم الذاتى وبنفس الحريات العامة التى يتمتع بها الهولنديون أنفسهم .

ولكن الزعيم سوكرنو لم ينتظر حتى يعود الهولنديون إلى قواعدهم، ورأى أن يضعهم أمام الأمر الواقع ، فاغتم الفرصة عقب خروج اليابانيين وأعلن في أغسطس ١٩٤٥ تكوين جمهورية أندونيسيا برياسته ، واختار لرياسة وزارته صديقة الدكتور شاهيرير وهو محام شاب درس القانون في جامعة ليدن بهولندا وقد أثر السجن في أثناء الاحتلال على التعاون مع اليابانيين كما فعل سوكرنو . ولكنه مع ذلك لم يتردد بعد ارتحال اليابانيين في وضع يده في يد سوكرنو ، وتعاون الاثنان على ضم الصفوف ومقاومة القوات التى نظمها الهولنديون لقمع الثورة . وكانت هولندا تميل أول الأمر إلى الاستنجد بالولايات المتحدة ، التى أصبح لقائدها الجنرال ماك آرثر مكانة فائقة في آسيا على أثر استسلام اليابان .

ولكن الحكومة الإنجليزية عارضت في تدخل الولايات المتحدة ، وقالت إن أندونيسيا داخلية في منطقة نفوذها . وعلى ذلك تقدمت إنجلترا بقواتها لمساعدة حليفها هولندا في قمع الثورة بأندونيسيا ، بل إنها لم تتورع حتى عن الاستعانة ببقايا جيش الاحتلال الياباني . ولكن إنجلترا لم تلبث أن كفت عن مساعدة هولندا بعد ان اثارَت روسيا هذا الموضوع أمام مجلس الامن سنة ١٩٤٦ ، وكانت الحكومة الهولندية قد رتبت شؤونها في بلادها ، فانفردت بالعمل أمام الأندونيسيين ، وعينت الدكتور فان موك Van Mook حاكما عاما للاقليم وقد فوضته في معالجة الحالة وفق ما يراه . وفان موك من مواليد الجزر الهولندية الشرقية ومن أنصار فكرة التعاون مع الوطنيين ، فاجتمع مع زعماء الأندونيسيين واتفق الطرفان في نوفمبر سنة ١٩٤٦ على أن تعترف حكومة هولندا بجمهورية أندونيسيا في جاوة وسومطرة ومادورا برياسة الزعيم سوكرنو، ومقابل ذلك تعترف أندونيسيا بسيادة التاج الهولندي على الاتحاد الأندونيسي الهولندي الذي يشمل أندونيسيا وغيرها من الجزر التي لا تريد الانضواء تحت لواء الجمهورية ، وأن يترك للاتحاد الت في مسائل الدفاع والعلاقات الخارجية والتعاون الثقافي . ويعرف هذا الاتفاق بمعاهدة « لنجاو حاتي » وقد وقع عليها السيد شاهيرير رئيس الوزارة إذ ذلك ، ووافق عليها البرلمان الهولندي . ولكن يبدو أن الرئيس سوكرنو وبعض العناصر المتطرفة لم يتأخروا إلى شروط الاتفاق ، فاستقال شاهيرير ولكنه بقي إلى جانب الرئيس كستشار له . وكأما أرادت هولندا أن تتهز الفرصة فتلقى الاتفاق من أساسه وتعيد البلاد إلى سلطانها القديم ، فجهزت قوة جديدة مألشت أن أغارب على أماكن الوطنيين في يونيه الماضي ، فأثارت بعدوانها سخط العالم أجمع ما عدا الدول التي يهملها بقاء الاستعمار كبريطانيا وفرنسا وبلجيكا . وارتفع صوت الوطنيين من جو كجاكارتا عاصمة الجمهورية الأندونيسية ، وحأروا بالشكوى من الطغيان الهولندي . وكان مندوب الجمهورية قد وصل إلى مصر ، وعقد مع الحكومة المصرية في يونيه الماضي معاهدة الصداقة ، فجاءته الأوامر بأن يرحل إلى أمريكا صحبة السيد شاهيرير للاستنجد بمجلس الأمن وسائر الدول . وكانت هولندا تدعى أن القوات الهولندية التي تحارب في أندونيسيا ، ما هي إلا قوة بوليسية تحاول استتباب الأمن وحفظ النظام في البلاد ، وأن أندونيسيا لا تزال قانونياً جزءاً من أملاك هولندا

وليس لها من الاستقلال والسيادة ما يسوّغ تدخل هيئة الأمم بشأنها . ولكن مجلس الأمن لم يسعه أن يتغاضى عن الحقيقة الواقعة ، وهي أن هناك حرباً تدور رحاها بين شعبين في الشرق الأقصى ، وأن الواجب يدعو المجلس إلى التدخل لوقف الحرب ، فأذعنت هولنده ، وبحث المجلس في القضية على عجل مستمعاً لشكوى أندونيسيا . وقد أصدر قراره في أغسطس الماضي بمطالبة الفريقين بوقف القتال . ووصلت هذه الأوامر رسمياً إلى الجهات المختصة ، ولكن الحالة عادت أسوأ مما كانت عليه بسبب حرب العصابات التي استفحل أمرها في أندونيسيا كما استشرى خطرهما في جهات أخرى من العالم في هذه الأيام (اليونان وفلسطين و دشمير) . وأخيراً تألفت لجنة ودية ثلاثية من بلجيكا عن هولنده وأستراليا عن أندونيسيا ومن الولايات المتحدة ، وقد قصدت اللجنة إلى اندونيسيا ، وهي الآن تحاول حسم الخلاف القائم في هذه الأرجاء ووضع حد للقتال القائم فيها منذ ثلاث سنوات .

ويبدو أن الأمل كبير في أن تعترف هولنده بحق الأندونيسيين في أن يحيوا الحياة الحرة المستقلة التي يترضونها لأنفسهم . فقد توالت النذر أخيراً بأن نجم الاستعمار قد آذن بالأفول . وها هي ذى الولايات المتحدة قد نزلت مختارة عن سلطانها في الفلبين . بل ها هي ذى بريطانيا سيدة الاستعمار قد حررت من سيطرتها بورما والهند وهي التي كانت إلى وقت قريب قبلة الاستعمار وألع جوهرة في تاجه . وبذلك قدمت حكومة العمال في إنجلترا الدليل واضحاً على نهاية سياسة الاستعمار القديمة ، واقترب عهد جديد لا تحكم فيه الشعوب ضد إرادتها ، ولا تقوم فيه قائمة لشعب يطغى ويبغى السيطرة على غيره من الشعوب .

محمد رفعت